

## كتابات الأسير الإسباني دي سيرفانتس

## مصدرا لتاريخ الجزائر في القرن 16م

*Writings of The Spanish Prisoner "de Cervantes" as a Source for  
Algeria's History in the Sixteenth Century*

زكرياء العابد

جامعة الحاج لخضر-باتنة (الجزائر)، lzack21@gmail.com

تاريخ النشر: 2023 / 04 / 30

تاريخ القبول: 2023 / 03 / 01

تاريخ الإستلام: 2022 / 10 / 13

## ملخص:

يعالج هذا البحث السيرة الذاتية لأحد أكبر الأدباء في العالم، والذي قضى حياته خلال الفترة التي شهدت الصراع الدائر في حوض البحر الأبيض بين الدولة العثمانية والإيالات التابعة لها في شمال إفريقيا من جهة وإسبانيا التي كانت تتوعم الإمبراطورية الرومانية المقدسة من جهة أخرى. جاء تميز هذا الرجل من خلال مشوار حياته الحافل بالأحداث حيث شارك في حروب بلاده كجندي وأصيب إصابة بالغة ووقع في الأسر حيث عاش تجربة مريرة دامت خمس سنوات بالجزائر. بعد افتدائه عاد إلى موطنه إسبانيا وكتب عدة أعمال كان أشهرها "دون كيخوته" التي سوف تحمله إلى العالمية وتخلد ذكره إلى الأبد، وقد ذكر الجزائر في بعضها فبحثت في احتمال كونها مصدرا لتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني.

الكلمات المفتاحية: الأسرى؛ الافتداء؛ حسان باشا؛ دون كيخوته؛ معركة ليبانتو؛ ميغيل دي سيرفانتس.

\*\*\*

**Abstract:**

This research deals with the biography of one of the greatest writers in the world, who spent his life during the period that witnessed the conflict in the Mediterranean basin between the Ottoman Empire and its dependent states in North Africa on the one hand, and Spain, which was leading the Holy Roman Empire on the other. This man was distinguished by his eventful life; he participated in his country's wars as a soldier, and was seriously injured and captured, where he lived a bitter experience that lasted five years in Algeria. After his redemption, he returned to his native Spain and wrote several works, the most famous of which was "Don Quixote", which made him worldwide renowned and perpetuated his memory forever. Algeria was mentioned in some of his works, so I discussed the possibility of them being a source for the history of Algeria during the Ottoman era.

**Keywords:** Battle of Lepanto, Don Quixote, Hassan Pacha, Miguel de Cervantes, Prisoners, Redemption.

## 1. مقدمة

امتازت شخصية دي سيرفانتس من خلال مسيرة حياته الحافلة بالأحداث حيث عاصر الخطر التركي (كما كان يطلق عليه في أوروبا) على بلاده وملكها.

فقد استطاعت الإمبراطورية العثمانية احتلال كل من بلغراد (1521م) وبلاد المجر (1526م) من جهة البر وحاصرت فيينا (1529م في المرة الأولى و 1532م في المرة الثانية) التي استعصت عليها، وبحرا بلغت جرأة الأساطيل العثمانية أن هاجمت الأساطيل والممتلكات الإسبانية في البحر المتوسط ولم تسلم الشواطئ الأوروبية نفسها من الهجمات (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 12).

كان دي سيرفانتس جنديا في خدمة ملكه فيليب الثاني ضد النفوذ والتوسع العثماني حيث شارك في معركة ليبانتو الشهيرة (1571م) والتي مني فيها العثمانيون بهزيمة نكراء، جعلت المنتصرين يحلمون باسترجاع قبرص وفتح المرافئ الإفريقية ظنا منهم أنهم قضوا على الأسطول العثماني للأبد. (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 44).

أصيب سيرفانتس إصابة بليغة كلفته عطبا دائما في ذراعه اليسرى ولكن ذراعه لم تقطع (ميسوم، 1981، صفحة 72) بل فقد القدرة على استعمالها فقط (ثريانتس، 2009، صفحة 06).

وبالرغم من إصابته استمر سيرفانتس في عمله كجندي، وأثناء عودته إلى إسبانيا تعرضت سفينته إلى الهجوم من قبل السفن التابعة لإيالة الجزائر وأخذ أسيرا إلى مدينة الجزائر وذلك سنة 1575 م. حيث حاول الفكك من أسره بإعداد خطة للهروب بمساعدة رفقا لله الأسرى الإسبان بعد أن فشلت محاولة الاقتداء بالمال، لكن جميع محاولاته باءت بالفشل وعرض نفسه لخطر الإعدام. لكن حسان باشا حاكم الجزائر (1577م-1580م) عفا عنه حتى يستفيد من عائدات عتقه، ونال دي سيرفانتس حريته وعاد إلى وطنه سنة 1580م بعد أن قضى خمس سنوات في الأسر بالجزائر. هنالك ألف دي سيفانتس كتاباته التي تناول بعضها حياته في الأسر وزيارته لمدينة وهران سنة 1581م. مما يطرحا ملامحة الاعتماد عليها كمصدر لكتابة تاريخ الجزائر العثمانية خلال القرن 16م (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 22).

### أولا: حياة ميغيل دي سيرفانتس وميوله الأدبية

ولد ميغيل دي سيرفانتس سافيدرا في التاسع والعشرين من شهر سبتمبر سنة 1547 م في قلعة هناريس وهي مدينة تبعد عن مدريد بثلاثة وثلاثين كيلومترا (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 24).

كان والده طبيبا إسمه دون رودريغو ولم يكن موفقا في مهنته، فعاش الفتى ميغيل في كنف عائلة تعاني الفقر حتى بلغ الخامسة عشرة من عمره. ومع ذلك استطاع أن يتردد على مدارس المدينة وحصل فيها العلوم التي كانت تدرس في ذلك العهد مع شيء من الأدب واللغة اللاتينية حيث كان من الطلبة الأوائل في الدراسة (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 25).

اضطر والد سيرفانتس إلى الانتقال إلى مدينة اشبيلية المطلة على البحر، نتيجة لضيق العيش الذي كانت تعاني منه الأسرة عسى أن تتحسن فيها أوضاعه المادية حيث كانت السفن تمخر البحر المحيط جيئة وذهابا بين بلاد الأندلس وبلاد العالم الجديد أميركا، مما أسيع على المدينة نعمتا كثيرة فازدهرت التجارة ونمت الثروة وأزهرت نتيجة لذلك الآداب والفنون (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 26).

مرة أخرى لم يبتسم الحظ لوالد ميغيل فلم تتحسن أحواله المادية، إلا أن ذلك لم يمنعه من الحاق ابنه بأحسن مدارس إشبيلية التي كان يشرف عليها الآباء اليسوعيون الذين جمعوا بين التربية والتعليم في طريقة تدريسهم إلى جانب اتصافهم بالمحبة والرعاية و العطف مع تلامذتهم فهل منهم الكثير من الدروس

والعلوم (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 26). كما سنحت له الفرصة لمشاهدة مسرحيات لوبي رويدا Lope Rueda الساخرة الي يعتبر صاحبها مؤسس المسرح الإسباني الحديث (مكي، 1972، صفحة 53).

بدأت موهبة الشعر تظهر على دي سيرفانتس فكان ي قرص الشعر لنفسه أو يلقيه على مسامع أصحابه ثم وافته الفرصة ليظهر براعته في هذا المجال وذلك حين توفت الملكة إيزابيل دي فالوا زوجة الملك فيليب الثاني ولم تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها في عام 1569 م فرثاها بقصيدة شعرية لاقى استحسانا كبيرا من لدن أحد أساتذته وكذلك أصحابه الذين قابلوه بالتهنئة والثناء. إلا أنها لم تفتح له الطريق إلى البلاط لأن الملك لم تكن له ميول أدبية وكان غاية همه التجارة وتحصيل الأموال إلى جانب واجباته السياسية، إلا أنها لفتت أنظار "خوليو أكوافيفا أراغون" سليل إحدى العائلات الإيطالية الشهيرة من طبقة الأمراء الذين يجمعون حولهم الشعراء والأدباء ويجودون عليهم بالنعم والحماية وكان هذا النبيل الذي سيصبح كاردينالا مغرما بالآداب والفنون وقد جاء من إيطاليا إلى إسبانيا لتقديم واجب العزاء للملك في وفاة زوجته، فوقع اختياره على سيرفانتس وغيره من الشعراء الشباب واستصحبهم إلى بلاطه (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 30) و (مكي، 1972، صفحة 53)

### ثانيا: اتجاهه نحو الجندية ومشاركته في معركة ليبانتو الفاصلة

بعد استقراره في روما لم يستسغ دي سيرفانتس العيش في بلاط الأمير فودع قصره عازما الانخراط في الجيش مليبا رغبته المتعطشة إلى المجد (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 35).

فعمل جنديا أجيرا لعله يصل أخيرا إلى ما يصبو إليه من مجد لم يجده في بلاط الأمراء والملوك فبحث عنه بين الجنود وعلى ظهر السفن والأساطيل. لقد كان في إيطاليا ثلاثة جيوش هدفها محاربة العالم الاسلامي ولا نعلم بالضبط إلى أي فرقة انظم وتحت أي راية كان يقاتل. ولكنه في الأخير التحق بأسطول التحالف البابوي المرابط في البحر الأبيض والمتكون أساسا من الجيوش الثلاثة المتمثلة في القوات الإسبانية والقوات الإيطالية والقوات البابوية إضافة إلى فرسان مالطا، بقيادة دون خوان دي أوستريا شقيق الملك فيليب الثاني، التقى أسطول التحالف بالأسطول العثماني في مضيق ليبانتي في 07 أكتوبر عام 1571م (مكي، 1972، صفحة 54).

كان الجندي ميغيل دي سيرفانتس على متن سفينة "لاماركيزا" وأثناء تحرك الأسطول أصيب بحمى ألزمته الفراش ولم تغادره حتى بعد وصوله إلى مكان المعركة، فأصر على القتال إلى جانب رفقاء السلاح متمنيا الموت في سبيل ربه وملكه وقد اختار أخطر مكان في السفينة بعد إلحاح شديد منه فما كان من قبطان السفينة سوى النزول عند رغبته. حيث كلفه ذلك غالبا فما لبث أن أصيب بثلاث طلقات نارية متعاقبة، اثنتان في صدره والثالثة في يده اليسرى تركتها مشلولة إلى آخر عمره وظل يقاوم رغم جراحه البليغة حتى رأى الأسطول العثماني يتراجع منهزما وتم النصر للأسطول التحالف (أبو ملهم و عبود، 1947، الصفحات 39-41).

الذي حاز على غنائم مادية كبيرة وأعداد هائلة من الأسرى المسلمين حيث كان مجموع القتلى والأسرى العثمانيين يقارب 20000 بينما كانت خسائر المسيحيين 8000 قتيل فقط وقليل جدا من الأسرى كما تم تحرير 30000 من الأسرى النصراري الذين كانوا يعملون بالتجديف على متن المراكب العثمانية (أوزتونا، 1988، صفحة 374).

بعد المعركة أرسل سيرفانتس إلى المستشفى للعلاج وأمر القائد بزيادة معتبرة في راتبه، وبعد مثوله للشفاء عاد مجددا إلى صفوف الجيش (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 45) وشارك في الحملة على تونس

(1573م) حيث احتلها دون خوان بسهولة وكان يرجو أن يمنحه شقيقه الملك مملكة تونس لكنه أبى عليه ذلك فترك حامية تحرسها وعاد بأسطوله إلى إيطاليا ومعه دي سيرفانتس (أبو ملهم وعبود، 1947، الصفحات 48-47).

استقر دي سيرفانتس بإيطاليا حيث مكث هناك حوالي عامين، ومع نمط الحياة الذي يتعارض مع شغفه بالمغامرة والسعي نحو المجد، وكذلك راتبه القليل الذي بالكاد يلبي احتياجاته، فقرر العودة إلى موطنه ليحرب حظه في إسبانيا فما كان منه سوى التقدم بطلب السماح له بالعودة إلى الوطن، فوافق دون خوان على ذلك وأعطاه رسالة توصية إلى أخيه الملك يطلب فيها وضعه كقائد كتيبه وهي رتبة يستحقها نظير ما أظهره من شجاعة ومواهب متعددة وصفات نبيلة (مكي، 1972، صفحة 54).

### الأسر ومحاولات الهروب

في العشرين من شهر سبتمبر من سنة 1575 م، ألق دي سيرفانتس مع أخيه رودريغو على متن سفينة من ميناء نابولي، والفرح يملأ قلبه وهو يمني نفسه بالاجتماع بالأهل ومشاهدة الوطن بعد غياب دام أربع سنوات والحصول أخيراً على رتبة محترمة في الجيش تحقق له بعض طموحاته التي لا تنتهي، خاصة وأنه يحمل معه رسالة التوصية من شقيق الملك نفسه، وكذلك يده المعطوبة (ثريانتس، 2009، صفحة 06) وهما سبيلان كافيان في اعتقاده لينال المكانة المرموقة التي لا طالما حلم بها وعمل من أجلها المستحيل (أبو ملهم وعبود، 1947، الصفحات 52-54).

ولكن يشاء القدر أن تذهب أحلام دي سيرفانتس أدراج الرياح وكان حظه السيء له بالمرصاد، فقد صادفت السفينة التي كان على ظهرها وهي في طريق العودة ومعها سفينتان أخريتان، بعض السفن التابعة لإيالة الجزائر تجوب البحر الأبيض بقيادة أرنأؤوط مامي، فقامت معركة حامية الوطيس قبالة شاطئ مرسيليا، انتهت بهزيمة السفينة الإسبانية وأسر جميع ركبها، وبالطبع كان من ضمن الأسرى سيرفانتس وأخوه رودريغو حيث نقلوا إلى مدينة الجزائر (مكي، 1972، صفحة 54).

وهكذا وبين عشية وضحاها تبددت فجأة أحلام دي سيرفانتس وارتسمت أمام عينيه صورة محزنة للأسرى ومعاناتهم على قوارب التجديف حيث مصير كل من يتوانى عن العمل، رميه في البحر ليكون طعاماً للحيتان وكذلك الخوازيق والمشانق التي يموت فوقها كل من يحاول الهروب من الأسر فضلاً عن التعذيب الفظيع في سجون الجزائر المظلمة (أبو ملهم وعبود، 1947، الصفحات 56-57).

وفي مدينة الجزائر التي وصفها سيرفانتس بأنها مركز العمليات البحرية التركية والإسلامية والتي كان يلجأ إليها القراصنة من كل أرجاء المعمورة (ثريانتس، 2009، صفحة 07). حيث قضى خمسة أعوام من عمره أسيراً في سجونها.

في داخل سجن الجزائر كان جميع الأسرى مقيدون بلغلال غليظة لكن قيود سيرفانتس كانت أثل وأعظم وذلك بسبب رسائل التوصية التي كانت معه وعلمها توقيع شقيق الملك وقائد أسطوله دون خوان دي أوستري. مما يحيل التفكير مباشرة أن صاحبها ذو شأن كبير وأن مبلغاً فتدائه سوف يكون كبيراً جداً مقارنة بالأسرى العاديين (أبو ملهم وعبود، 1947، صفحة 60).

لذلك يمكن لهذه الشخصية المرموقة في المجتمع الإسباني أن يكون لها دورا في الصراع الدائر بين إيالة الجزائر وإسبانيا من خلال مقاضتهم بمجموعة كبيرة من الأسرى المسلمين وهكذا فإن تلك الوثائق التي حملها معه سيرفانتس لتفتح له دربا إلى حياة سعيدة صارت سببا لتعاسته ويؤسه (مكي، 1972، صفحة 55).

لم يقض سيرفانتس سوى بضعة أشهر في سجنه حتى بدأ في التفكير والاعداد للهروب، فكانت خطته التي إتفق بموجبها مع مجموعة من الأسرى تقوم على الالتحاق برا بمدينة وهران التي كانت محتلة من قبل الإسبان. لكن هذه المحاولة الأولى للفرار فشلت فشلا ذريعا بسبب صعوبة الطريق ونقص خبرة الدليل الذي اعتمد عليه سيرفانتس حيث التبتت عليه الطريق فتركهم ليستترشد بمن يعرف الطريق أفضل منه لكنه لم يعد، فعادوا إلى سجنهم بكامل إرادتهم (أبو ملهم وعبود، 1947، الصفحات 64-66).

عوقب الأسرى عقابا شديدا ونجا سيرفانتس لأن ال فدية المتوقعة له كانت كبيرة (مكي، 1972، صفحة 55).

بينما يروي سيرفانتس نفسه أن اجراءات حبسه شددت أكثر من السابق وفرضت عليه مراقبة قاسية ولم يذكر شيئا عن الجلد والتعذيب وقد عزا بعض المؤرخين ذلك إلى طيبة أمير الجزائر الذي كان يستعد لمغادرة البلاد وتسليم مقاليد الحكم لحسان باشا (أبو ملهم وعبود، 1947، صفحة 66). وبعد مرور عام في الأسر، أفرج عن عدد من الأسرى الإسبان فحمل أحدهم رسالة لوالد ميغيل الذي بذل جهده وكل ما يملكه هو وأسرته في جمع مبلغ ا لفداء الذي عجز عن افتداء ميغيل وشقيقه معا فأطلق سراح رودريغو فقط فحمله سيرفانتس رسائل لنواب الملك في مايورقا وبلنسية ولفرسان القديس يوحنا ولعدد من المسؤولين الإسبان يرجو منهم تجهيز سفينة وارسالها لشواطئ الجزائر حتى يتسرنى له وللمجموعة من الأسرى الإسبان الهروب. وقد ظهرت فعلا هذه السفينة قبالة شواطئ الجزائر في شهر سبتمبر 1577 م تحت قيادة أحد الأسرى الذين كانوا في السجن مع سيرفانتس وأفرج عنه بعد دفع ال فدية. لكن حراس الشواطئ كانوا متيقظين واكتشفوا أمرها ففرت هاربة صوب البحر، فلحقها البحرية الجزائرية وأسرتها بمن فيها (مكي، 1972، صفحة 55).

كانت الخطة التي اعتمدها سيرفانتس تقضي بأن يخبئ الأسرى الذين سوف يفرون على متن السفينة المنتظرة، داخل مغارة خارج المدينة حيث مكث بعضهم قرابة نصف عام بينما مكث الآخرون أقل من ذلك، وكان سيرفانتس هو من يتولى عملية ام داهم بما يحتاجونه بمساعدة بعض الأشخاص (عبد الكريم، 2005، صفحة 20).

ولم تكمل عملية الفرار بالنجاح للأسباب التي ذكرت سابقا إضافة إلى افتقار بحارة السفينة إلى الشجاعة فلم ينزلوا إلى اليابسة ليخبروا من كانوا في المغارة بوصولهم، كما أن أحد المسيحيين الذين كانوا يرجون التقرب من حسان باشا علم بالخطة فلأخبره بها ووشى بصاحبها فلحضر سيرفانتس أمام السلطان حسان باشا الذي كان على درجة كبيرة من الغلظة بحيث لا يتورع عن شنق الأسير الفار أو جده أنفه وتشمل العقوبة كذلك كل من ساهم في عملية الفرار سواء بالمساعدة أو الاخفاء لكن سيرفانتس تحمل كامل المسؤولية معرضا حياته لخطر ال جلد أو القتل ووعوضا أن يأمر السلطان بإعدامه سع إلى شرائه من سيد ه مقابل 500 أوقية ذهبية طامعا في الحصول على فدية تبلغ ضعف هذا المبلغ (عبد الكريم، 2005، صفحة 20).

والعجيب أن سيرفانتس بعد هذه الحادثة بعث برسالة إلى الملك فيليب الثاني يرجوه فيها بشن حملة لغزو الجزائر وتحرير الأسرى الإسبان. ففكر سيرفانتس في الهروب مرة أخرى صوب وهران، لكن حامل الرسالة إلى حاكم وهران افتضح أمره وكان جزاؤه الجلد، بينما حكم على سيرفانتس نفسه بمائتي جلدة وبتدخل

منأعيان الجزائر لم يتم التنفيذ، لم ييأس سيرفانتس رغم فشله، فكانت محاولته الرابعة للفرار وربما ساعده نجاحه من العقاب في كل مرة على الاستمرار في المحاولة. لكن الوشاية كانت له بالمرصاد ليصل خبر فراره لحسان باشا وتفشل خطته من جديد ويكتفي بسجنه والتضييق عليه حتى لا يقوم بمحاولة جديدة (مكي، 1972، صفحة 56).

### ثالثا: الافتداء والعودة إلى الوطن

لظلت جميع عمليات الفرار الأروع كلها بالفشل. وقد لاحظنا الاصرار العجيب لسيرفانتس على معاودة الكرة وعدم استسلامه لليأس بالرغم من خطر الموت الذي كان يترصده أثناء تنفيذه لعملية الهروب نظرا للمخاطر التي كانت تحيط بها في كل مرة، أو بعد الإمساك به عقب فشلها وبالتالي مواجهة المصير المحتوم المتمثل في عقوبة الإعدام خاصة مع تكرار المحاولة عدة مرات. لقد برهن سيرفانتس على شجاعته الفائقة بالرغم من وضعيته البائسة كأسير مسلوب الإرادة والحرية وأبان عن عزة نفس تتوق للحرية وتأبى الظلم والإذلال والعبودية. وإن كان حظه العاثر قد لازمه في عمليات الفرار فباعت جميع خطته بالفشل الذريع، إلا أنه كان محظوظا بنجاحه من العقاب الشديد الذي كان ينتظره بعد كل محاولة. بعد تدخل أطراف معينة لصالحه بثورة، وعفوح حسان باشا عنه لأغراض في نفسه تارة أخرى.

والعجيب أن الكاتبة التشيلية أدريانا لاسلأصرت على أن سبب امتناع حسان باشا عن انزال العقاب بسيرفانتس على الرغم من فراره من سجنه أربع مرات كاملة إنما مرده لحاجته إليه في اشباع رغباته الجنسية (الشروق أونلاين، 2010)، وهو اتهام خطير لا ندري من أين أتت به هذه الباحثة و أين دليلها على ذلك، ولأن اليسر يأتي بعد العسر فقد لاحت أخيرا علامات اقتراب الفرج بعد الشدة وذلك في يوم 29 من شهر ماي سنة 1580 م، الذي شهد وصول راهبان من هيئة الثالث المقدس (العابد، 2007، صفحة 91) إلى الجزائر حيث قابلا حسان باشا وتحديثا إليه في أمر افتداء سيرفانتس بعد أن جمعا مبلغ الفدية بعد عناء كبير حيث ساهمت كل من أمه وأخته وبعض التجار بالجزء الأكبر وحملت هيئة الآباء الجزء المتبقي مع التكفل بإيصاله (مكي، 1972، صفحة 57).

كان حسان باشا م صرا على مبلغ الألف قطعة ذهبية لكنوصول رسالة تستدعيه إلى القسطنطينية جعلته يتراجع عن القدر الذي حدده، ويقبل بمبلغ 500 قطعة ذهبية مكتفيا بلسترجاع المبلغ الذي اشتراه به. وكان ذلك من حسن حظ سيرفانتس لأن القيمة التي طالب بها مرتفعة جدا ولم يكن الراهبان يملكانها وبالتالي يصبح تحريره شبه مستحيل (مكي، 1972، صفحة 57).

وأخيرا أشرفت شمس الحرية على سيرفانتس بعد خمس سنوات من المعاناة والأسر وعوضا أن يسارع إلى ركوب أول سفينة تعود به إلى وطنه وأهله، فضل التريث لحاجة في نفسه. أراد سيرفانتس أن يحمل معه قبل مغادرته شهادة مشرفة عن سيرته أثناء الأسر والتي تزخر بأعمال مجيدة بذلها في سبيل رفاقه الأسرى ناكرا لذاته ومخاطرا بحياته من أجلهم، حسب ما جاء في الشهادة التي أدلى بها الأسرى الإسبان (أبو ملهم و عبود، 1947، الصفحات 100-101).

فطلب انجاز عريضة من أجل إجراء تحقيق عن سيرته وسلوكه أثناء فترة الأسر في الجزائر بعدما رأى محاولات لتشويه صورته، وهي موجهة إلى مجلس ملك إسبانيا فيليب الثاوي (جلاب، 2014).

للأسف لن تنفع هذه العريضة كما كان يرجو صاحبها ولن تعود عليه لا بالمقابل المادي ولا بالمجد، ولن يقابل كبطل حين عودته لبلاده. وأخيرا عاد سيرفانتس إلى وطنه بعد غياب دام عشر سنوات، وحين رست السفينة في الميناء هب جم غفير لاستقبالهم، وقد وصف ميغيل مشهودو صولهم قائلا: "إن الأسرى خرجوا إلى

البرواحد واحدًا لأنهم في طواف وقبلوا ترابه مرة تلومرة ودموع الفرح تغمر عيونهم" (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 104).

وبوصوله إلى إسبانيا طويت صفحة سنوات من الأسر والإثارة، ولكنه وهو يكافح من أجل حياة أفضل سوف يجابه ظروفًا صعبة ومثيرة ولا تقل قسوة عن ظروف الأسر القاسية التي عاشها بالجزائر، حتى أنه لم يحقق النجاح المالي الذي يبتغيه ولاحتى المجد الأدبي الذي طالما حلم به والذي سوف يخلد به ولكن بعد وفاته (مكي، 1972، صفحة 58).

#### رابعاً: كتاباته وعلاقتها بالجزائر

ارتبط سيرفانتس بالجزائر بصلته إقامة والتي كانت جبرية فرضتها عليه عملية الأسر حيث مكث خمس سنوات من سبتمبر 1575 إلى أكتوبر 1580 م.

وكذلك بصلته زيارة لما زار مدينة وهران المحتلة كمبعوث خاص من الملك فيليب الثاني إلى الحاكم الإسباني العام بوهران دون مارتين دي كوردوبا حيث مكث شهراً كاملاً من أواخر ماي إلى أواخر جوان من سنة 1581 (ميسوم، 1981، صفحة 73) ولأن مؤلفاته ظهرت كلها بعد سنة 1581م فقد كانت تأثير السنوات التي قضها بالجزائر عليها واضحاً، حيث ذكرت الجزائر في مجموعة من كتاباته من خلال ذكره ليوميات أ سره بمدينة الجزائر أو بعض مشاهداته بمدينة وهران، خاصة في المؤلفات الروائية التالية (ميسوم، 1981، صفحة 74):

- معاملات الجزائر Tratos de Argel
- حمامات الجزائر Los banos de Argel
- السلطانة العظيمة Lagran sultana
- الإسباني الشجاع El gallardo Espanol

تحدث في رواية معاملات الجزائر عن حياة الأسرى وما يلاقوه من أ صناف الشقاء وعن طرق بيعهم في الأسواق وعن الأفكار والحيل التي كان الأسرى يحاولون من خلالها التخلص من الأسر، وعن سفالة المرتدين المسيحيين وخياناتهم وعن المؤامرات الداخلية (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 207)، ومظاهر الصراع النفسي والديني وعدالة حسان باشا التي تظهر في الأخير وتنشرح بها صدور الأسرى الإسبان (ميسوم، 1981، صفحة 74).

والهدف من وصف حياة الأسرى، تحريض فيليب الثاني على اتمام أعمال والده شارلكان والقضاء على القرصنة، وكذلك اثارة عواطف الجمهور المسيحي حتى يساهموا في تمويل الرهبان ومساعدتهم بكل الطرق في جهودهم لافتداء الأسرى (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 208).

وقد جاء في حمامات الجزائر، ذكر الأعياد التي كان يحتفل بها الأسرى والنشاطات التي كانت تتخللها من تمثيلات ور قص وألعاب وغيرها (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 210)، مع وجود علاقات عاطفية متبادلة بين الجزائريين والإسبان مما يؤدي إلى نظرة مشاعر العطف والغيرة وكذلك حضور ليهود الجزائر، وعدالة حسان باشا التي تبرز مرة أخرى وتنتصر الحرية على الاستعباد (ميسوم، 1981، صفحة 74).

أما رواية السلطانة العظيمة فتدور أحداثها حول قصة خيالية لإمرأة إسبانية حسناء تؤسروها في طريقها إلى وهران وتحمل إلى استانبول وتكون من نصيب السلطان، ويفضل إيمانها وعظفها سوف تكون سبباً في انقاذ كثير من الأسرى، وقد أظهر سيرفانتس تساهل السلطان العثماني حيث لم يرغمها على ترك دينها على

عكس ما كان شائعا ويروج له كذب بل وبهتاننا من ارغام المسلمين لزواجهم الأوروبية على المروق من دينهن و  
اعتناق الإسلام (أبو ملهم و عبود، 1947، الصفحات 210-211).

بينما تناول في روايته الاسباني الشجاع الحصار الذي حاول من خلاله جيش إيالة الجزائر استرجاع  
مدينة وهران. ولئن أمام بسالة الإسبان وج بن المسلمين! اضطر الجيش إلى فك الحصار وهروب مقاتليه بمن  
فيهم أميرهم حسان باشا . مع ما صاحب ذلك من مظاهر الاحتفالات نتيجة لهذا النصر في المهسكر  
الاسباني (ميسوم، 1981، صفحة 76).

وفي الأخير نذكر العمل الذي خلد سيرفانتس ونقله إلى مصاف الكتاب العالميين واختير كأفضل عمل  
في تاريخ الأدب العالمي وترجم إلى أكثر من 60 لغة وقد صدر الجزء الأول منه سنة 1605 م تحت عنوان دون  
كيخوته.

وهو الجزء الذي احتوى على تاريخ الأسير ويستغرق من الفصل 39 حتى 41 (حذف من متن الكتاب  
في كثير من طبعاته) ، جمع فيه كاتبيي ن الحوادث الحقيقية والخيالية والأمور النفسانية وال طرفاة، واحتوى  
على قسط وافر من المعلومات الهامة حول حياة الأسرى في سجون الجزائر ومن ضمنهم بطبيعة الحال  
سيرفانتس نفسه (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 322).

وملخص رواية تاريخ الأسير يتمثل في جانب من حياة سيرفلنتس مع تغيير في مجرى الأحداث والأمكنة  
والشخصيات (أبو ملهم و عبود، 1947، صفحة 322)

حيث يتكلم عن ولادته وظروف عيشه القاسية نتيجة إصراف والده المبالغ فيه لدرجة أنه كان  
سيصبح من الأثنياء لولا صفة السخاء التي اكتسبها من كونه جنديا إبان شبابه "لأن هذه المهنة مدرسة يصيح  
فيها المقتصد سخيا والسخي م بذرا، وإذا وجد جنود بخلاء فهذا أمر نادر جدا، مثل المخلوقات العجيبة". وعن  
اختياره لمهنة الجندي امتثالاً لأمر والده، ثم عن الحروب التي شارك فيها إلى أن وقع في الأسر حيث أقتيد إلى  
الجزائر وصار عبدا لحسان باشا، فيتعرف على فتاة مسلمة ابنة أحد أثرياء مدينة الجزائر، تأثرت منذ كانت  
صغيرة بالديانة النصرانية التي تعلمت تعاليمها من جارتها المسيحية حيث تقوم بلقاء المال من نافذة قصرها  
خفية عن أبيها وتعيد العملية عدة مرات، لتشجعهم على الفوار وتمكثهم من شراء قارب هو وأصدقائه الأسرى  
يكون وسيلتهم للنجاة. وقد استطاعوا أن ينفذوا خطتهم بنجاح بعد أن اختطفوا الفتاة وتركوا والدها مكبل  
اليدين ووصلوا إلى بلدهم سالمين واعتنقت الفتاة الديانة التي كانت تتوق إليها (ثريانتس، 2009، الصفحات  
415-446).

### خامسا: كتاباته كمصدر لتاريخ الجزائر في العهد العثماني

أقيمت احتفالات جزائرية إسبانية بمناسبة المئوية الرابعة لصدور رواية دون كيكوته، وقد تكلم  
مدير معهد سيرفانتس الإسباني بلالجزائر العاصمة السيد ادواردو كالفو غارسيا عن تجربة سيرفانتس في مدينة  
الجزائر والتي كان لها حسب اعتقاده دورا هاما في كتابة دون كيشوت باعتباره شخصية عالمية مستعدة  
للتضحية من أجل القيم الإنسانية الراقية المتمثلة في الحرية والشرف والعدالة والتسامح (ث، 2004،  
صفحة 19).

كما أوضح أن سيرفانتس جزء من تاريخ الجزائر وثقافتها وما كان لدون كيشوت أن يوجد لولم يتسن  
له العيش فيها وحتى لو وجد لكان على صفة مغايرة لتلك التي عرفناه بها (ث، 2004، صفحة 19)، وذلك لأن  
فترة الأسر التي قضاها سيرفانتس في مدينة للجزائر كان لها الأثر العميق في نفسه وكتاباته، ورواية دون  
كيخوته خير دليل على ذلك، لأنها احتوت على فصول تتكلم عن الأحداث التي عاشها في الأسر في هذه  
المدينة (ثريانتس، 2009، صفحة 07).

والكثير من جوانبها يعبر عن الوقائع التي عاشها سيرفانتس في حياته ومن ضمنها سنوات أسره بالجزائر.

فمثلا جاء على لسان البطل في الرواية " تأمل يا سارنتشو! إن الوظائف تبدل العادات ولعلك إن رأيت نفسك حاكما تنسى أم ك التي ولدتك!" وهذه العبارة تعبر عن حالته النفسية بعدما تنكر له أصحابه بعد عودته إلى إسبانيا وخاصة أن أحدهما وقد أصبح يعمل في بلاط الملك، كان أسيرا معه وشارك في خطة المغارة وكانت نجاته بفضل تضحية سيرفانتس، والآخر كان صديقا م قريبا جدا ومع ذلك لم يجد منه ما كان يرجوه من المساعدة (أبو ملهم وعبود، 1947، الصفحات 108-109).

وحتى روايته معاملات الجزائر التي أعابها النقاد من الناحية الأدبية ولكنها احتفظت بلهميتها كوثيقة تاريخية (أبو ملهم وعبود، 1947، صفحة 207).

وقد كان سيرفانتس يعتمد إما على مشاهداته وحديثه مع الناس أو على روايات عن أسرى آخرين يثق بهم، أو أحداث عاشها بنفسه وبالتالي لا تخلو كتاباته من الفوائد التاريخية لأنها لا تصطدم مع الواقع وغالبا ما تحتوي على وقائع طريفة انفراد بتدوينها مما لا يلفت انتباه المؤرخين.

ومن عيوبها الظاهرة التي لا تقلل من قيمتها التاريخية أنها احتوت على مخترعات من بنات أفكاره كما صرح هو بذلك (ميسوم، 1981، صفحة 76).

وكذلك اقتصرها في معظمها على الجوانب التي تتعلق بحياة الأسرى وقد أشار إلى ك. غارسيا إلى أن سيرفانتس لم يسهب في الكلام حول إقامته في مدينة كثيرة الحركة والسكان ومفتوحة على العالم، ويختلف أهلها عنه في الثقافة واللغة والدين والعادات والمعتقدات. مع وجود بعض الذكريات التي فرضت نفسها في كتاباته، وكأنه كان ملزما بواجب اخفاء مقامه بها! (ث، 2004، صفحة 19).

ودعا إلى ضرورة الغوص في حياة هذا الروائي حيث قال: " يبدو لي أنه سيكون من المهم أن يتولى مؤرخون وبحاثة جزائريون الكشف عن لغز سيرفانتس في مدينة الجزائر" (ث، 2004، صفحة 19).

بينما ذهبت أدريانا راسل بعيدا لما رفقت أي تأثير للجزائر على سيرفانتس وأن ما تضمنته الرواية عن الجزائر ماهو إلا محض خيال! والجزائر لم تكن بها ثقافة أصلا مما جعل سيرفانتس لا يجد ما يك تبهر عنها! (الشروق أونلاين، 2010).

وقد ذكرت الباحثة قصة أسر سيرفانتس مع أخيه الأصغر رودريغو وصححت حسب زعمها الكثير من المعطيات غير الدقيقة التي رسخها المؤرخ الإسباني دييغو ودي هايدو عن قصة أسره في كتابه الشهير "طبوغرافيا والتاريخ العام لمدينة الجزائر" (الشروق أونلاين، 2010).

وذلك في بحثها الموسوم ب "خمس سنوات مع سيرفانتس" (Lassel, 2012) والذي حاولت فيه الغوص في خصوصيات سيرفانتس واعطاء بعض الإجابات حول بعض الاستفسارات التي لم يجب ع زها لا سيرفانتس ولا معاصروه في هذه الفترة الخاصة والجرجة من حياته لتعبد وأسير.

لم تمر هذه المغالطات مرور الكرام بل أثارت ردود أفعال كان أبرزها قيام الوزير السابق السيد كمال بوشامة بلرد على الباحثة وضرب لها الكثير من الأمثلة المضيفة عن المراكز الثقافية التي كانت تزخر بالجزائر خاصة الزوايا تأكيدا على أن ثقافتنا دينية بالأساس وهو الأمر الذي يتنافى ونظرة هذه الدكتورة، وأحالتها على دراسة تاريخ الجزائر الثقافي (الشروق أونلاين، 2010)

وكذلك حاول الكاتب جمال غلابالاتصال بصدير معهد سيرفانتس ليكفل له حق الرد لكنه جوبه بالرفض! (الشروق أونلاين، 2010).

II. خاتمة:

لقد تركت الخمس سنوات التي قضاهها دي سيرفانتس مجبرا في الجزائر الأثر البالغ في نفسه وكذلك في كتاباته حيث ساهمت تجربة الأسر في تغيير الكثير من مفاهيمه وسلوكياته وكذلك صقلت مواهبه الفكرية والأدبية ولعل أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث هي:

- كان جنديا حاضرا في الصراع الدائر بين بلده إسبانيا والعثمانيين وشارك فيه ودفع ثمنه غالبا حين أصيب إصابة خطيرة ثم وقع أسيرا.
- كان يحمل نفسا أبيه تأبى الذل والمهانة فحاول الهروب من سجنه عدة مرات معرضا حياته لخطر الموت على البقاء في نير العبودية والأسر.
- طموح ه إلى المجد والقيادة لم تمنعه منه مخاطر الحروب ولا ظروف الأسر القاسية فحاول عدة مرات جمع رسائل توصية تشفع له عند القادة الإسبان وربما تمكنه من شغل مناصب عليا كان يسعى الى الوصول إليها.
- اهتم كثيرا بظروف الأسرى ومعاناتهم وبعث إلى ملكه يحثه على غزو إيالات شمال افريقيا والقضاء على القرصنة وتحرير جميع الأسرى الذين كان لهم بمثابة الأب الرحيم.
- اصطدم بواقع مرعبين عودته إلى بلاده وواجه ظروف لا تقل قسوة عن تلك التي عاشها بالجزائر.
- تحطمت كل آماله الأدبية والمالية ولم يتسن له رؤية المجد الذي يبلغ الآفاق لأن ذلك سوف يكون بعد وفاته.
- خلدته أعماله وقد جاء ذكر الجزائر في بعضها وبالرغم من احتواءها على مبالغات وتغييرات اقتضتها الضرورة الأدبية إلا أنها مازالت تحتفظ بقيمتها التاريخية.
- يمكن الاعتماد عليها بعد الدراسة والتمحيص والمقارنة في الكتابة عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني.

#### الإحالات والمراجع:

#### باللغة العربية

الشروق أونلاين. (2010,04 28). باحثة إسبانية تهتم الداى حسان بالشذوذ والجزائر بالجهل. تم الاسترداد من [www.echorouKonline.com](http://www.echorouKonline.com)

الطاهر أحمد مكي. (1972). ثرفانتس قمة الأدب الإسباني -كان أسيرا في مدينة الجزائر-. الأصلة.

ثريانتس. (2009). كيخوته. (عبد الرحمان بدوي، المترجمون) دمشق: دار المدى.

زكرياء العابد. (2007). الجزائر في العهد العثماني من خلال رحلات أوربية. قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر.

عبد الإله ميسوم. (1981). الجزائر في مسرحيات سيرفانتيس. مجلة الثقافة، 64.

فرحات جلاب. (2014,01 02). ميغيل دي سيرفانتس وتجربة الجزائر. تم الاسترداد من [www.aljazeera.net](http://www.aljazeera.net)

[www.aljazeera.net/news/cultureandart](http://www.aljazeera.net/news/cultureandart)

ق.ث. (2004,10 29). احتفالات جزائرية إسبانية بالمئوية الرابعة لرواية دون كيشوت. جريدة اليوم اليومية.

م. عبد الكريم. (2005,02 03). إقامة سرفانتس سيبا في الجزائر من 1575 إلى 1580م. جريدة الخبر اليومية.

نجيب أبو ملهم، و موسى عبود. (1947). سرفانتيس أمير الأدب الإسباني. تطوان، المغرب: مطبعة المخزن.

يلماز أوزتونا. (1988). تاريخ الدولة العثمانية (المجلد 01). (عدنان محمود سلمان، المترجمون) إستانبول:

مؤسسة فيصل للتمويل.

باللغة الفرنسية:

Lassel, A. (2012). *Cinq années avec Cervantes*. (Y. Madiba, Trad.) Alger: Editions Dalimen.